حـدود التفسير العلمي وإسرائيليات العلم المعـاصر

د/حمودي مخلوف

توطئة:

التكلم في تفسير **القرآن** الكريم ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها وما كل صعب يترك، ولذلك قال العلماء: لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها: إن القرآن كلام سماوي تنزَّل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كُنهها قلب أكمل الأنبياء، وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزكية، والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ بتلابيبه، ويكاد يحول دون ما يطلبه، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه، لأنه إنما أنزل الكتاب نورا وهدًى، مبيِّنًا للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.

ومن هنا فإنّ السعي لفهمه وكشف مكنوناته، والاستضاءة بأنواره، وهدايته من واجبات كل مسلم، كلٌّ حسب طاقاته، فعليه ترتكز العلوم الدينية، وعلى ضوء هدايته اكتُشفت أسرار الكون وقوانين الطبيعة، وهو المعجزة الخالدة، والمصدر النبيل لكل خير وسعادة في الدارين.[1]

تعريف التفسير العلمي:

يتمثل التفسير العلمي في الوقوف على سرّ المطابقة الكلية التي يلاحظها الباحث بين ظاهر الآية القرآنية والواقع الذي تشير إليه، ولا يمكن الوقوف على هذه المطابقة إلا عن طريق العلم، الذي يسعى جاهدا إلى الكشف عن أسرار الكون

ليُطلع الباحثين على حقائقه، ومقارنة نتائجه التي وصل إليها بما جاء مذكورا في القرآن، وملاحظة المطابقة بين حقائق هذا ونتائج ذاك، وهو الذي جعل القول بالتفسير العلمي ضرورة قائمة لا ادعاءً مزعوما، لأن ما وصل إليه العلم عن طريق البحث والدراسة كشف عنه القرآن عن طريق الوحي، ولذلك فالتفسير العلمي يعنى بالتقريب بين العلم والقرآن، للاشتراك الواضح بينهما في تقديم الواقع على صورته التي هو عليها بالفعل، هذا الواقع المتغير باستمرار، ومع ذلك يبقى مطابقا للرؤية القرآنية التي يعمل العلم على اكتشافها، وهذا ما أذهل الباحث "موريس بوكاي" عندما قارن بين نتائج العلم المعاصر ومضمون الكتب المقدسة حيث قال :« إن من لا يعرف القرآن تصيبه الدهشة إذا ما لاحظ الجمع بين حقائقه وحقائق العلم....»[2] وانطلاقا من هذه الرؤية جاءت تعاريف متعددة للتفسير العلمي للقرآن الكريم، نكتفي بما أورده الدكتور " أمين الخولي" بقوله : « وهو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن الكريم، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها"[3].

وتكمن أهمية الموضوع في كون هذا النوع من التفسير يحاول استنطاق النص بلغة العصر "العلم" علّه يرد على احتياجات الظروف القاسية التي يعيشها المسلمون الحاملون لأقدس نص، والمكلفون بتبليغ الرسالة لمن هم أحسن حالا منهم في شتى مجالات الحياة، فكيف للضعيف الحامل لنور الهدى أن يقود القوي الضال ؟

ومن هنا نشأت اتجاهات فكرية في الساحة الإسلامية، بين مؤيد لهذا النوع من التفسير ورافض له ومخصص له شروطا، وتكون مداخلتنا حول إبراز هذه الحدود بإظهار الأسس والشروط التي يقوم عليها هذا النوع من التفسي، وذلك بالرجوع إلى القرآن نفسه نحكّمه في هذا الاختلاف بين المفكرين.

وإذا كانت الوسطية هي وجهتنا فإنّ الإشكالية التي تستوجب الوقوف عندها هي: ما الحدود التي نقف عندها في تحكيم الرؤية العلمية المعاصرة في فهم القرآن

الكريم؟ لأن العلم من خصائصه أنه قابل للتعديل والتغيير، ويصحح نفسه بنفسه، وتراكمي البناء، كما أنه وثيق الصلة بالمجتمع يؤثر ويتأثر به، في حين أنّ الحقائق القرآنية يقينية ثابتة، فلنبدأ من حيث نشأة فكرة التفسير العلمي.

أليست الحقائق العلمية إسرائيليات جديدة؟

إذن نكون قد وقعنا فيما وقع فيه المفسرون الأوائل الذين انتقدناهم فيما قاموا به.

ألم تكن الإسرائيليات حقائق علمية في عصرها ؟

إن الكثير مما يسمى حقائق علمية لا يتسنى لأصحابها ـ المسلمين ـ التحقق من صحتها وإنما يسلّمون بها كما جاءت في الكتب عن غيرهم.

جذور التفسير العلمي:

فكرة أنّ القرآن الكريم حوى جميع العلوم دون استثناء، فكرة قديمة أقرها الإمام "أبو حامد الغزالي" رحمه الله بقوله: << أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدين وتجردهم للطلب...فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير>>.[4]

ويقول في موضع آخر: << فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها وفي القرآن إشارة إلى مجامعها>>[5]

كما نجد هذه الفكرة عند فلاسفة الإسلام الذين تبنوا العلوم الحكمية اليونانية، والتي عرفت بقضية التوفيق بين الحكمة والشريعة، ويمثلها "ابن رشد" وغيره من الفلاسفة، هذا الأخير الذي كان يرى في فلسفة أرسطو وجميع آراءه في مختلف المجالات نموذجا يستلزم الاقتداء والاستنارة به، ويعتبر أن كلا

من الشريعة والحكمة حق، والحق لا يضاد نفسه، فلا بد من التقاء الحكمة و الشريعة في النتائج وإن اختلفت عنه ....في البحث عن الحقيقة.[6] ولم تكن العلوم قد انفصلت عن الفلسفة حينها، ومن هنا فإنّ الآراء الفلسفية تشرح ما أشار إليه القرآن حسب رأيه.

ونجد جذور التفسير العلمي عند الإمام الرازي (تـ 606هـ) ـ الملقب بـ "فخر الدين الرازي" الذي كان فريد عصره ونابغة دهره، إذ جمع كثيرا من العلوم وبرع فيها فكان محط الأنظار ومقصد العلماء الأفذاذ لما تمتع به من منزلة علمية ـ في كتابه التفسير الكبير، والمسمى «مفاتيح الغيب» انتهج فيه منهجا محددا حيث:

أ. يقسم السورة إلى مقاصد، ثم يحلل كل مقصد بعد ذلك بالوقوف على الآيات بعد توزيعها إلى مجموعات تتحد في الموضوع.

ب. تفسير كل مجموعة منها لفظيا.

ت. تفسير كل مجموعة بما يقتضي الكلام الوارد فيها من بيان يعتمد على علوم العقل، ويستطرد في العلوم الكونية المعروفة في زمانه، وكانت عليه مآخذ في توسعه في ذكر مسائل علم الكلام والعلوم الطبيعية والرياضية.

و نصادف اتجاه التفسير العلمي عند الإمام السيوطي، حيث عقد له بابا خاصا في كتابه الإتقان في علوم القرآن تحت عنوان " الإكليل في استنباط التنزيل"، حيث يقول : << وأنا أقول قد اشتمل كتاب اللّه العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل، إلا وفي القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض وما في الأفق وتحت الثرى >>.

وعندما نأتي إلى عصرنا الحاضر نجد أشهر من تناول هذا الموضوع الشيخ "طنطاوي جوهري" (1870م ـ1940م)، الذي كان يدرّس بمدرسة دار العلوم بالقاهرة، وقد ترأس تحرير مجلة الإخوان المسلمين، ويقع هذا التفسير في 25

مجلدا ويسمى «الجواهر في تفسير القرآن »، وتفسيره يقوم على فكرة رئيسية محددة وواضحة، مفادها أنّ القرآن هو المصدر الأول لمختلف العلوم، ويؤكد الجوهري على أن هذا هو جانب الإعجاز في القرآن، بل ويرفض أن يظل إعجاز القرآن مقتصرا على الناحية البلاغية .

وإلى هذا ذهب السيد أبو القاسم الخوئي ـ أحد أئمة الشيعة (1899م ـ1992م) بالنجف الشريف حيث يقول :<< إن القرآن هو مرجع لكل علماء اللغة والمعاجم، ودليل علماء النحو، ومستند أعلى للفقيه المجتهد، ونموذج يحتذي به الأديب، وغاية البحث المواظب للحكيم، ومعلم للواعظ المبشّر،ومثابة لكل رجل ذي خلق ودين، منه اشتقّت العلوم الاجتماعية، ومبادئ الإدارة العامة للدولة، وعليه ترتكز العلوم الدينية، وعلى ضوء هدايته اكتشفت أسرار الكون وقوانين الطبيعة >>.[7]

كما مال الشيخ "محمد عبده" (ت 1323هـ/1905م) إلى التفسير العلمي مستعينا بمنهج أستاذه جمال الدين الأفغاني، إلا أنه دعا إلى التأدّب مع كتاب اللّه، وعدم زجّ آياته الكريمة في نظريات لم تتحقق بعد، فالقرآن أرفع من أن يعارض العلم، ومع ذلك وقعت له هفوات في هذا النوع من التفسير، فقد رجّح رحمة اللّه عليه بأن الطير الأبابيل التي ورد ذكرها في سورة الفيل ما هي إلا ذبابة أو بعوضة تحمل مكروبات، وما الحجارة التي وردت في الآية، إلا الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح بأرجل هذه الحيوانات.

ويميل مصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ/1937م) إلى هذا اللون من التفسير في كتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية »، وقد قال في معرض كلامه عن القرآن والعلم : << وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق غوامض العلوم الطبيعية>>.

و أما في وقتنا هذا فإن المهتمين بهذا النوع من التفسير يعدون بالعشرات، وربما بالمئات، كلٌّ حسب تخصصه العلمي وبقدر ما أوتي من التعليم الديني،

وقد أبرز الإعلام عددا كبيرا منهم وعلى رأسهم :"عبد المجيد الزنداني" ، وكذلك الدكتور "راغب زغلول النجار"،والدكتور "محمد راتب النابلسي".. . وقد شغلت دروس هذا الأخير الكثير من المتبعين والمعجبين بهذا التوجه في التفسير، وامتاز تفسيره بالتوسط والحذر في التعمق، يستهدي بالحقائق العلمية في جذب المستمع لتحقيق الهداية التي هي غايته، وليست المقاربة هي غايته فيما بدا لي من تفسيره .

المعارضون للتفسير العلمي:

من المعارضين لهذا النوع من للتفسير الإمام الشاطبي (ت 790هـ /1388م)و قد أقام رفضه للتفسير العلمي على مفهوم «الأمية » فالشريعة في نظره ينبغي أن تكون أمية لأنها نزلت في قوم أميين.[8] وليس من الحكمة في نظره أن يخاطب القوم بما لا يفهمون[9] وأن يكلفوا ما لا يعقلون[10]، وأنّ ما جاء في القرآن الكريم من آيات تذكر الأرض، والسماء وما فيهما من كائنات، لا يتجاوز ما زكّاه القرآن من علوم كانت معهودة للعرب أيام نزول القرآن، ذكر منها علم النجوم، وعلم الأجواء، وعلم التاريخ، وأخبار الأمم الماضية، وعلم الطب [11].....

ومن المعاصرين نجد الدكتور "محمد كامل حسين" يرفض مبدأ وجود العلوم في القرآن لثلاثة أسباب:

أ.اختلاف الموضوع بين القرآن والعلم.

ب. اختلاف المنهجية في تبليغ حقائقهما.

ت. تخصيص الدين بمهمة يعجز العلم بالقيام بمثلها .

فبينما يهتم العلم الحديث بالطبيعيات، تختص الكتب المقدسة بقوانين النفس البشرية والغيب والإلهيات، فالكتب المقدسة «ليس لها بالعلم الحديث صلة ولا يضيرها في شيء أن تكون بمعزل عن هذه العلوم[12]».

ومن ناحية ثانية، فإنه يتعذر الجمع بين القرآن والعلم الحديث، لأن القرآن لا يتبع مسار العلم في بسط حقائقه فهو دعوة الحق الأزلية التي لا تعرف تغييرا، بينما يقوم العلم على التغيير المستمر في نظرياته.« وكيف يريدون أن يظل القرآن هاديا للناس إذا دأبوا على تأويله حسب تغيرات العلم الحديث وهو سريع التقدم والتغير ».[13]

ومن المعاصرين كذلك التيار العلماني المُغرض والمعبّر عن فكر الاستشراق في ثوب متميز، نجد "محمد أركون" و"عاطف أحمد" - و كلاهما من التيار العلماني- ينطلقان من نفس الفرضية في معارضتهما للتفسير العلمي للقرآن الكريم، وهي أن دعوى اشتمال القرآن على جميع العلوم دعوى باطلة، يصفها الدكتور "محمد أركون" بكونها تيارا أدبيا ذا أهمية نفسية فائقة يعين على تأصيل الإيمان والاعتزاز بالتعاليم الإسلامية إزاء الغزو الفكري الغربي منذ القرن التاسع عشر خاصة.[14] ولا يُخفي أركون حقده على كل من يخدم القرآن بتفان وإتقان، وهو يدرك جيدا ما لهذا التوجه وأصحابه في وجه التيار العلماني الذي أعدّه المستشرقون الحاقدون على الإسلام، للوقوف في وجه تقدم الأمة، وأركون وزبانيته من المكلفين بهذه المهمة القذرة، وهو يستغرب من أمر مسلمين متخصصين في العلوم الدقيقة يدخلون بسهولة في الدراسات القرآنية ويكتبون عنها، ويتعجب من كونها تحظى بنجاح، فيقول<<فمثلا كان المهندس الجزائري "مالك بن نبي" قد فرض نفسه في النصف الأول من القرن العشرين بصفته مفكرا مسلما كبيرا، عن طريق إصدار كتاب سطحي جدا يدعى الظاهرة القرآنية>>.[15]

ولا يسعنا المقام للتعليق على هذا الحكم، لأن غرضنا هو إبراز الآراء الرافضة لهذا التوجه من التفسير.

في حين يرى الدكتور "عاطف أحمد" أنّ التفسير العلمي للقرآن محاولة لتطويع النص الديني للعلم الحديث، بالتوفيق بينهما ووصفها بأنها قضية خاسرة

بحكم التاريخ وحكم المنطق وحكم الواقع.[16] ويرتكز هذا الباحث في إنكاره للتفسير العلمي على ثلاثة أدلة:

1.عدم مطابقة المعاني العلمية الحديثة للتركيب اللغوي الحرفي في القرآن كما فسره اللغويون والمفسرون الأوائل.

2.عدم مطابقة مجموع الآيات في الموضوع الواحد لنفس الحقيقة المعاصرة.

3.مطابقة ما في القرآن لما كان عليه الناس من المعاني أثناء النزول[17]، وهي في نظر الباحث المنصف المتعمق أدلة وافية.

القضايا الأساسية محل الاختلاف:

وبعدما عرضنا باختصار أهم الشخصيات العلمية المؤيدة والمعارضة لهذا اللون من التفسير يمكننا أن نلّخص القضايا الأساسية التي هي محل الاختلاف فيما يلي:

1)**حقائق الدين وحقائق العلم:**

هذه المسألة قديمة تعود إلى زمن اختلاط المسلمين بغيرهم، ونشأة الفكر الفلسفي والكلامي الإسلامي بعد اطّلاعهم على الفكر اليوناني بالخصوص، فالمقارنة بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية هي التي أدّت إلى القول بـ:

أ. الجمع بينهما.

ب. الفصل بينهما.

2)**إعجاز القرآن الكريم:**

نجد الانقسام هنا حول المعجزات:

أ.احتفظ البعض بمسائلها كما جاءت عن السلف الصالح.

ب. بينما رأى الفريق الثاني أن يضاف إليها ضرورة من أوجه الإعجاز ما مثله يؤمن عليه الناس اليوم، وأهم أوجه الإعجاز التي أضافوها : "الإعجاز العلمي".

3)**مسألة اللغة:**

وتتمثل هذه القضية في علاقة اللفظ بالمعنى من جهة، وربطه بالزمن الذي ظهرت فيه من جهة أخرى، فمنهم من جمّد النص وقيّده بمعاني ألفاظه زمن

نزول القرآن، وبالتالي بالمستوى الذي كان عليه الناس في تلك الفترة، ومنهم من فتح باب الفهم على مصراعيه، وأحدث جدلية بين النص وبين المعنى، تكسب النص حداثة متجددة تواكب تطور الفكر في إدراك حقائق الأشياء.

4) **تغير المفاهيم:** إنّ لفظ "العلم" وإن كان واحدا فإن المفاهيم التي تعلقت به متغايرة. فالمعنى الذي أعطاه الغزالي لهذا اللفظ في عصره، مختلف عن معناه في العصور بعده.

5)**نظرة الباحث للنص المقدس:** يمكن تصنيف الباحثين في هذه المسألة إلى صنفين:

❖ المؤمنون بأنّ القرآن منزل من عند الله، فهو في نظرهم حكم على غيره، ومصدر لاستمداد حقائق كل الأشياء منه.

❖ و هناك من يرى بأنّ القرآن ظاهرة ينبغي دراستها كما تدرس باقي الظواهر الاجتماعية، فتُحكم فيه قواعد المنهجيات الحديثة في البحث، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى القول بإعادة النظر في قدسيته وفي مدى صحة المعلومات الواردة فيه.

فهذه أهم القضايا التي أدت إلى الاختلاف بين مختلف التيارات السالفة الذكر، المؤيدة والمعارضة لهذا النوع من التفسير، وكذلك التيار المؤيد بتحفظ للتفسير العلمي.

وإذا عدنا إلى عصرنا هذا فإن هناك ظاهرة جديرة بالاهتمام، تتمثل في أنّ أغلب المهتمين بهذا النوع من التفسير رفضا وقبولا، تأييدا ومعارضة، ليسوا من أهل الاختصاص الديني، وإنما هم من أصحاب تخصصات خارج مجال الدراسات الإسلامية الأكاديمية الرسمية من كليات الشريعة والحوزات العلمية كالأزهر، والزيتونة، والأمير عبد القادر، وكليات الشريعة في مختلف البلدان الإسلامية إلاّ القليل النادر منهم .

الفئات التي تحمل هذا التفسير:

يمكن أن نقسم هذه الفئات إلى أقسام ثلاثة هي:

1. **فئة اللغة والدراسات القرآنية** : وهي فئة كان جل اهتمامها وتخصصها علوم الشريعة واللغة العربية ثم مالت إلى النظر في العلوم التطبيقية المعاصرة، وأخذت منها بطرف يسير، فلم تتعمق فيها تعمقا يؤهلها إلى معرفة مناحي ما تريد أن تربطه بالقرآن الكريم، وهي فئة لا يمكن التعويل عليها، لأنها غير قادرة على الفهم العميق للنظريات والحقائق العلمية وما يترتب عنها من تصورات فكرية من الناحية الإبيستيمولوجية.

2. **الفئة الثانية**: وتتمثل في أولئك الذين تعمقوا في دراسة العلوم المعاصرة في مختلف التخصصات، وكانت لهم قاعدة علمية مشتركة تمكّنهم من فهم ما يجري في عالم المعرفة الغربية اليوم، لكنها كانت قليلة الاتصال بالقرآن الكريم، أو قُل منقطعة تماما عن الدين الإسلامي، ثم رجعوا إلى الدين فبدأت اهتماماتهم بتفسير وفهم القرآن، ويدخل ضمن هذه الفئة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام عن طريق البحث العلمي والبحث عن الحقيقة، فمثل هؤلاء لا يوثق كثيرا بما يثبتونه في كتبهم، أو يقولونه في أحاديثهم حول التفسير العلمي للقرآن الكريم.

3. **الفئة الثالثة**: وهي فئة متميزة حباها الله، منذ فتحت عينيها على هذه الدنيا وهي تعيش في ظل الإسلام الحق، فتشربت تعاليمه منذ الصغر،وكانت لها اهتمامات بعلوم الشريعة والعربية من ناحية، وبالعلوم التجريبية والرياضية المعاصرة من ناحية أخرى، وهؤلاء أوفق من يستطيع الربط بين الآيات القرآنية التي فيها إشارات علمية، وبين ما اكتشف من حقائق علمية، ولعل فرص الالتباس والخطأ لدى هذه الفئة ستكون قليلة.

اتجاهات التفسير العلمي:

على ضوء هذه الفئات السابقة يمكننا أن نميز اتجاهين اثنين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

الاتجاه الأول:

اتجاه غير مأمون محفوف بالمخاطر كثير المزالق، قد يقول فيه المفسّر على الله بغير علم، أو يشتطّ به خياله إلى حدود بعيدة عن العقل، ويتمثل هذا الاتجاه في ربط الآيات القرآنية الصريحة بالنظريات العلمية المتغيرة، وهو لا يستأنس بالحقائق العلمية في الفهم وإنما يعتقدها اعتقادا مع أن الحقيقة العلمية متغيرة مع الزمن، وليست مطلقة على عكس الحقيقة الدينية، وما أكثر هذا النوع في الساحة الفكرية اليوم، وقد روّج لها الإعلام كثيرا عن قصد أو غير قصد، ويكفي أن تفتح قناة تليفزيونية اليوم لترى نماذج كثيرة.

فالنظريات العلمية قابلة للأخذ والرد والمناقشة، إذ ما يثبته العلماء اليوم على سبيل التغليب قد يقلبونه غدا رأسا على عقب، ومجال الصدق في النظريات العلمية يقرره العلماء بنسب معينة، فالنظرية النسبية وهي أحدث النظريات العلمية، لا يزال علماء الروس يرفضونها جملةً وتفصيلاً، كما أنّ العلوم التجريبية كلها عبارة عن سلسلة من الفروض والنظريات في كثير من الأحيان يلغي بعضها البعض، أو يصحح اللاحق ما قاله السابق، بل يوجد من علماء الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر من فكّر في إعادة الأرض إلى مركز الكون بدل الشمس التي أقرّها "نظام كوبرنيك"، وذلك قصد إزالة ذلك التناقض بين المنهج ونتائج تجربة مشهورة في العلوم الفيزيائية تحت اسم "تجربة نيكلسون ومورلي"، وهذا يعني قلب كل الأسس التي قام عليها العلم الحديث، بل إنّ العلم المعاصر الذي أنشئ في بداية القرن العشرين قام على أسس مناقضة للأسس التي قام عليها العلم الحديث، ومن هنا هل يمكن لعاقل أن يربط الآيات القرآنية الصادقة بالنظريات والمفاهيم العلمية المتقلبة؟

لا شك أنّ المعارف العلمية تزيد من قدرتنا على فهم مراد الله، وتُعمّق من إدراكنا لمراده تعالى، وتعيننا في التوفيق بين الواقع والمطلوب والتقريب بينهما، ولكن ليس لنا أن نجزم أنّ هذا هو الحق وأنّه المراد.

فنظرية الانفجار العظيم في فيزياء الكون، والتي تنصّ على أن الشمس والكواكب السيارة وباقي النجوم والمجرّات نشأت كلها من السديم الملتهب الناتج عن كتلة نقطية بالغة الكثافة والصغر، ثم أخذت تبرد وتنكمش على نفسها وتدور بسرعة متزايدة، ومع تقادم الزمن انفصلت حلقات من هذه المادة عن طريق السحابة فتكونت منها الكواكب السيارة، أما القسم المركزي فقد تقلص وتكونت منه الشمس.

ذهب البعض ممن انبهر من العلوم الفيزيائية إلى التأكيد أنها تفيد قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت: 11

و دعّم رأيه بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأنبياء: 30

ومن المعروف لدى أهل الاختصاص أنّ الأمر في هذه النظرية لم يحسم بعد، بل إنّ هناك اعتراضات عليها من قبل علماء الفلك أنفسهم.

ومنهم من فسّر قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ الذاريات: 47

بالنظرية الفيزيائية التي تنصّ على أنّ الكون في حالة توسّع، وهي مجرد فرضية علمية تخمينية إثباتاتها غير كافية لحد الساعة.

فمثل هذه النظريات يمكن أن تدعم أقوال المفسر الذي توفرت فيه الشروط على سبيل تعميم الفهم واستمالة أهل الاختصاص إلى مراد الله وهديه، لكن لا يمكن الجزم بالقول فيها.

ويمكن أن نلحق الحوادث التاريخية في هذا الاتجاه، فقد عزم بعض المفسرين في تفسير الآيات ذات النسق التاريخي إما بتعيين أسماء بعض من أشار إليهم القرآن، أو بتحديد المناطق التي قد تكون الأحداث التاريخية - والتي أشار إليها القرآن- جرت عليها، وهنا ننبّه إلى أمرين مهمين:

أ. يجب أن نعلم بأنّ القضايا التاريخية كما هو معروف تخضع للترجيح لا للجزم. أي إنها تفيد الظن، وهذا الأخير لا يغني عن الحق شيئا، ومن هنا يجب على المفسر ألا يعتمد في عمله إلا على اليقين العلمي.

ب. ماهية المصادر التي استقى منها المفسر معلوماته عن هذه الشخصية أو هذا الحدث، فلا ريب أنّ المفسر إذا لم يجد ذلك واضحا في القرآن أو الأحاديث النبوية الثابتة فإنه لا يعوّل عليه، وسوف لن تتعدى المصادر حينئذ عن كتب الأولين أو بما أثبته علم الآثار المعاصر، وهذا لا يعوّل عليه في التفسير، وقد ذهب البعض في معرفة شخصية ذي القرنين إلى القول بأنه يعني "الإسكندر المقدوني"، ومن الثابت تاريخيا أنّ هذا الأخير كان وثنيا، وهذا يكفي لرد هذا الفهم، وكذلك تحديد مكان أهل الكهف، فكل ذلك لا يعوّل عليه، والأمثلة في هذا الباب كثيرة ولا يسعنا إلا أن نسميها بالإسرائيليات الجديدة أو المعاصرة. أو لم تكن محاولة السلف الصالح فهم الآيات المتشابهة بالرجوع إلى التراث الإنساني القديم من هذا النوع؟

الاتجاه الثاني:

وهو الاتجاه الذي تركن إليه النفوس الطيبة، لأنّ الخوض فيه مأمون إلى حدّ معين، وينحصر فيما يلي:

1. ما يقوم به المنشغلون بالدراسات القرآنية من شرح للآيات القرآنية وتعميق لمعناها في النفوس، وذلك بربطها بحقائق علمية ثابتة أو بنظريات علمية لها من الإمكان في تفسير الظواهر الكونية والتوقعات المستقبلية، ما يجعلها محل احترام من طرف العلماء، مع كون نتائجها لا تتنافى مع مقاصد الشريعة، ولا

تتعارض معها، ومع ذلك يبقى هذا الفهم مرتبط بالزمان والمكان، ويمكن الاستئناس به على حد تعبير القدماء.

فإذا كان العلم يقرّ بمبدأ الزوجية ويثبتها بالتجارب في مختلف فروع العلم، وأنها موجودة في الجماد والنبات والحيوان، وهذه حقيقة علمية يمكن الركون إليها في التفسير، وهذا ما ذهب إليه سيد قطب في تفسيره: «..و من يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله»[18].

وعندما ينظر إلى وصف الطب الحديث لمراحل تطور الجنين في رحم الأم نجد أنها تتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم بشكل موجز بليغ ووصف بديع حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ المؤمنون: 12

وهناك الكثير من محاسن هذا النوع من التفسير، حيث إنّه جذب كثيرا من أهل الاختصاص للاهتمام بالنص القرآني والارتكاز عليه في أبحاثهم العلمية، ولعل أوضح المحاسن لهذا النوع من التفسير اعتناق الكثير من الشخصيات العلمية العالمية لهذا الدين الكريم.

حدود التفسير العلمي:

إنّ سوء الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كان سببا في كثير من البدع والضلالات التي عرفها الفكر الإسلامي في القديم والحديث، ومن هنا فإن التفسير العلمي للقرآن الكريم يجب أن تكون له حدود يلتزم بها ومعالم يهتدي بها لتفادي الانزلاق والوقوع في القول على الله بغير علم، فإن ذلك من أكبر الكبائر، وهذه الحدود تتمثل فيما يلي:

أ. شروط المفسر وآدابه.

ب. حدود المضامين العلمية.

❖ **شروط المفسر:** لقد ذهب علماؤنا إلى وجوب توفّر جملة من الشروط في كل من يتعرض لبيان معاني القرآن الكريم، والتي نجملها فيما يلي:

1)**صحة المعتقد:** لأن صحة العقيدة أساس كل عبادة.

2)البعد عن الهوى: لأن الأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذاهبهم وتأويل النصوص بلا دليل.

3)**صحة المقصد:** لأن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

4)**اللغة العربية:** إنّ القرآن نزل بلغة العرب، ففهمه إنما يكون من هذا الطريق. وفي هذا يقول الشافعي: « من جهل لسان العرب الذي أنزل به القرآن وراح يخوض في علم التفسير كان صوابه غير محمود وخطؤه غير معذور لأنه قد تكلف ما لم يعلم.»(19)

5)**الاطلاع على أصول الفقه وكيفية الاستفادة منها:** لأنها تساعد على فهم النصوص القرآنية.

6)**أسباب النزول:** ويتمثل في معرفة ما نزل بشأنه القرآن الكريم لأنه يساعد على فهم معاني القرآن الكريم.

7)**علم القرآن:** وهو تلك المذاهب في النطق بالقرآن الكريم وبمعرفة القرآن تترجح للمسفر أحد الوجوه المحتملة.

8) **العلم بالنسبة النبوية الشريفة:** فهي المصدر الثاني للتشريع، وهي المصدر الشارح لنصوصه.

9) **الموهبة**: اشترط العلماء في المفسر أن يكون صاحب موهبة، وتتمثل في تلك الفتوحات التي يفتح الله بها على عبده المؤمن.

و لا شك أنّ هناك علوما أخرى تساعد المفسّر، ولكنها علوم ثانوية، ومنها الاطلاع على أصول الأمم، بمعنى: علم الاجتماع، وعلم النفس وغيرها، لأنها توسّع من إدراك المفسر للمعاني القرآنية.

❖ **حدود المضامين العلمية:** لما كانت الحقائق العلمية تتعلق بالزمان والمكان، ومتغيرة مع تغير الأحوال والظروف، فعلى المفسر الذي يستخدم هذه المضامين أن يمتلك الحد الأدنى من محاصيل العلوم المعاصرة التي تمكّنه من

مناقشة وفهم وتتبع تطور هذه المفاهيم، ولا يمكن لمن لا يمتلك هذا الحد الأدنى- والذي نعني به التعليم القاعدي الأول الذي تمنحه مراحل التعليم العالي الأولي التي تعطي المتعلم قواعد أساسية تمكّن صاحبها من مواصلة البحث بنفسه- أن يتصدى لهذه المهمة.

ولا يكفي التخصص الواحد في ميدان معين، بل عليه أن يتشبّع بثقافة علمية توسّع من إدراكه، وتمكّنه من ملكة علمية نافذة، كما يجب أن يكون له اطلاع واسع في تاريخ العلوم وتطورها، لأن ذلك من شأنه أن يعصمه من الأخطاء التي وقع فيها الأوائل، ويعرف كيف تطور العقل البشري في بحثه عن الحقيقة، ومن هنا يدرك الفرق بين الحقيقة المطلقة التي جاء بها الوحي والحقيقة العلمية التي استنبطها العقل أثناء مراحل تطوره، هذه الأخيرة نسبية متطورة، متغيرة مع الزمان والمكان، على عكس الحقيقة المطلقة.

ومن الأهمية بمكان لمن يتصدى للتفسير العلمي أن يكون على دراية بما يجري في فلسفة العلوم المعاصرة، من نقد بناء لأسس العلم المعاصر، لكي يدرك مدى قيمة الحقائق العلمية المدّعاة في كثير من الأحيان.

ومن كان على دراية بهذه الحدود والشروط العلمية، يدرك جيدا، بأن الكثير من التأويلات العلمية المعاصرة في تفسير القرآن الكريم لا تختلف عن الإسرائيليات، التي حُشيت بها كتب التفسير القديمة، ومما لاشك فيه أنّ الأجيال القادمة سيتضح لها ما وقعنا فيه من أخطاء، نتيجة ولوعنا بمنتجات غيرنا بما تحمله من غثّ وسمين، فليس لنا حظ ولا مساهمة في العلم المعاصر، وما نحن في ذلك إلا قوم تبّع، فالأمة بحاجة إلى هداية وتجديد الصلة بالله، فهي على يقين مما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما تحتاج هداية وفهما يتحول إلى سلوك عملي في حياتها، قبل إقناع الآخرين بصحة ما عندها من يقين.

يبدو لي أننا في أمس الحاجة إلى تحكيم الرؤية القرآنية في البحث العلمي ونتائجه، وذلك بأن لا يكون إلا على مناهج تحترم حدود الله، وأن تكون غاياته وفق مراد الله، وأن يكون الانشغال به طاعة لله، وأن لا تقبل نتائجه إلا بموافقة شرع الله، وبذلك نصنع لأنفسنا صراطا مستقيما نبلغ به ما بلغ الرعيل الأول لهذه الأمة من مجد وسؤدد.

قائمة المصادر والمراجع:

1.ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997م.

2.أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، مطبعة المكتبة التجارية .

3.أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار القلم، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

4.أحمد عاطف، نقد الفهم العصري للقرآن، دار الطليعة الطبعة الأولى، سنة 1972م .

5.أمين الخولي، دراسات إسلامية، دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1996م

6.الشافعي، الرسالة، دار الفكر- ط1، 2009 .

7.سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط1 سنة 1985م

8.محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2005م

9.محمد أركون، مفهوم العلم للقرآن الكريم، دار الطليعة ، الطبعة الأولى، سنة 1972م .

10.محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب، 1990م.

11.د. محمد كامل حسين، الذكر الحكيم، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ .

12.مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة، المكتبة التوفيقية (د ت).

13.موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل، ترجمة عادل يوسف، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م.

الهوامش:

(1)محمد رشيد رضا ، تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب، 1990 م، ج1، ص17.

(2)موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل، ترجمة عادل يوسف، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م، ص167.

(3)أمين الخولي، دراسات إسلامية، دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1996م، ص28.

(4)الغزالي، إحياء علوم الدين، دار القلم، بيروت، لبنان، ج1، ص300

(5)الغزالي- إحياء علوم الدين – كتاب آداب تلاوة القرآن، الباب الرابع- في فهم القرآن وتفسيره بالرأي، بدون تاريخ - ج1 – ص 296

(6)ابن رشد – فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 2001م، ص76.

(7)نقلا عن محمد أركون، مفهوم العلم للقرآن الكريم – دار الطليعة - الطبعة الأولى، سنة 1972م، ص 77.

(8)أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، مطبعة المكتبة التجارية، ج2/ ص 69

(9)نفس المرجع – 52/2

(10)نفس المرجع - 88/2

(11)نفس المرجع – 2/72- 75

(12)د. محمد كامل حسين، الذكر الحكيم، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ ص 183.

(13)نفس المرجع – ص 186

(14)محمد أركون، مرجع سابق، ص 75.

(15)محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2005م، ص15.

(16)د. أحمد عاطف، نقد الفهم العصري للقرآن، دار الطليعة، الطبعة الأولى، سنة 1972م، ص 75

(17)نفس المرجع

(18)سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط1 سنة 1985م، ج5/ص2967 . 2968

(19)الشافعي، الرسالة، دار الفكر- ط1، 2009 ص69.